الأجنبيـــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

أَحبَّها وأَحبَّته ، حتى ذهب بها فى الحب مَذْهباً قالت له فيه : « لو جاءنى قلبى فى صورةٍ بَشَرِيَّة لأَراه كما أُحِبُّه ، لما اختار غيرَ صورتك أنتَ فى رقّتك وعطفك وحنانك . »

وحتى ذهبتْ به فى الحب مذهباً قال لها فيه : « إن الجنة لا تكون أبدعَ فناً ، ولا أحسنَ جمالاً ، ولا أكثر إمتاعاً لو خُلِقَتْ امرأةً يهواها رجل ؛ إلا أن تكون هى أنتِ . »

فقالت له : « ويكونَ هو أنتَ . . . »

وتَدَلَّهتْ فيه ، حتى كأنما خَلَبها عقلَها ووضع لها عقلاً من هواه ؛ فكانت تقول له فيما تَبُثُّه من ذاتِ نفسها : « إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتبرِّئةً من أنها إرادة ، مُقِرَّةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر ، مُذْعِنَةً أنها قد سلّمت كبرياءَها لهذا الحبيب ، لتراه فى قوّته ذا كبريائين . »

وافتتن بها حتى أخذتْ منه كلَّ مَأخَذ ، فملأتْ نفسَه بأشياء ، وملأت عينَه من أشياء ؛ فكان يقول لها فى نجواه : « إنى أرى الزمن قد انْتَسَخَ مما بينى وبينك ، فانما نحن بالحب فى زمنٍ من نَفْسَيْنا العاشقتين لا يُسمَّى الوقتَ ولكن يسمَّى السرور ، وإنما نعيشُ فى أيام قلبيّةٍ لا تدلُّ على أوقاتها الساعةُ بدقائقها وثوانيها ، ولكن السعادةُ بحقائقها ولذّاتها . »

وتحابَّا ذلك الحبَّ الفَنِّيَّ العجيبَ الذى يكون ممتلئاً من الروحين يكاد يَفيضُ وينسكب ، وهو مع ذلك لا يَبرحُ يطالب الزيادة ، ليتخيَّل من لذتها ما يتخيَّلُ السكّيرُ فى نَشْوته إذا طفحت الكأس ، فيرى بعينيه أنهــا ستتّسع لأكثرَ مما امتلأتْ به ، فيكونُ له بالكأس وزيادتها ، سُكْرُ الخمرِ وسكْرُ الوهم

تحابّا ذلك الحبَّ الفَوّار فى الدم ، كأن فيه من دَوْرته طبيعةَ الفراقِ والتلاقِ ، بغير تلاقٍ ولا فراق ؛ فيكونان معاً فى مجلسهما الغَزَلىّ ، جَنْبَهُ إلى جنبها وفاهَا إلى فيه[1] وكأنما هَرَبَتْ ثم أدركَها ، وكأنما فَرّتْ ثم أمسكَها . وبين القُبْلةِ والقُبلة هِجرانٌ وصلح ، وبين اللّفْتَةِ واللّفتة غضَبٌ ورضى

وهذا ضَرْبٌ من الحب يكون فى بعض الطبائع الشاذّة المُسْرِفة التى أفرطتْ عليها الحياةُ إفراطها فَيلْتفُ الحيوانيّةَ بالانسانية ، ويجعلُ الرجلَ والمرأةَ كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها ؛ لا تلتقى إلا لتمازج ، ولا تمازجُ إلا لتتّحد ، ولا تتحدُ إلا ليبتلعَ وجودُ هذا وجودَ ذاك

* * *

وضَرَب الدهرُ من ضَرَباته ، فأبغضته وأبغضها ، وفَسَدتْ ذاتُ بينهما ، وأدبر منهما ما كان مُقْبِلاً ؛ فوثَبَ كلاهما من وجود الآخر وثْبة فَزِعٍ هارباً على وجهه . أما هو فتخطّاها لعيوب نفسها ، وأما هى . . . وأما هى فتكرّهته لمحاسنِ غيره . وانْسَرَبَتْ أيامُ ذلك الحب فى مَسَاربها تحت الزمن العميق الذى طَوَى ولا يزالُ يَطْوِى ولا يبرحُ بعد ذلك يطوى ؛ كما يغور الماءُ فى طِباق الأرض . فأصبح الرجلُ المسكين وقد نزلتْ تلك الأيامُ من نفسه منزلةَ أقاربَ وأصدقاءَ وأحِبّاءَ ماتوا بعضُهم وراءَ بعض ، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فِكْرَه ، فكانوا له مادّةَ حسرة ولَهْفة . أما هى . . . أما هى فانشقّ الزمنُ فى فكرها برَجّةِ زلزلة ، وابتلع تلك الأيامَ ثم التأم . . . !

* * *

حَدّثنا « الدكتور محمد » رئيس جماعة الطلبة المصريين فى مدينة . . . بفرنسا ، قال : وانتهى إلىّ أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة ، وأنه قادمٌ من مصر ، فتَحَاجَنى الشوقُ إليه ، ونزعتْ إلى لقائه نفسى ، وما بيننا إلا معرفتى أنه مصرىٌّ قدِمَ من مصر ؛ وخُيِّل إلىّ فى تلك الساعة مما اهتاجنى من الحنين إلى بلادى العزيزة ، أن ليس بينى وبين مصرَ إلا شارعان أقطعُهما فى دقائق ؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مثواه ، كما يصنع الطير إذا تَرامى إلى عُشِّه فابتَدَرَه من قُطْر الجوّ

(١) تأويل هذا فى باب (الحال) عند ظرفاء النحويين : متلاصقين متعانقين

قال : وأصبتُه واجماً يعلوه الحزن ، فتعرّفتُ إليه فما أسرعَ ما مَلأ من نفسي وما ملأتُ من نفسه . وكما يَمَّحِي الزمانُ بين الحبيبين إذا التقيا بعد فُرْقة — يتلاشى المكانُ بين أهل الوطن الواحد إذا تلاقَوا في الغُربة . فذابت المدينةُ الكبيرةُ التي نحن فيها ، كأنْ لم تكن شيئاً ، وتجلّى سحرُ مصر في أقوى سَطوتِهِ وأشدها ، فأخذَنا كأنّينا فما استشعرْنا ساعتَئذٍ إلا أن أوروبا العظيمة كأنما كانت مرسومةً على ورقة ، فطويناها وأحللْنا مصرَ في محلها

وطغى علينا نازعُ الطرَب طغياناً شديداً ، فأرسلْتُ من يجمع الاخوانَ المصريين ، واخترتُ لذلك صديقاً شاعرَ الفطرة ، فَنزَا به الطربُ ، فكان يدعوهم وكأنه يُؤذِّن فيهم لاقامة الصلاة . وجاءوا يُهَرْوِلون هَرْوَلةَ الحجيج ، فلو نَطقَتْ الأرضُ الفرنسية التي مَشَوا عليها تلك المِشْيةَ لقالت : هذه وَطْأةُ أسودٍ تتخيّل خُيَلاءَها من بَغْيِ النشاط والقوة

ألا ما أعظمَكِ يامصر ، وما أعظمَ تعنُّتَكِ في هذا السحر الفاتن ! أينبغي أن يغتربَ كلُّ أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبويّ العظيم « مصرُ كِنانةُ الله في أرضه . » فيعرفوا أنك من عِزّتك معلَّقةٌ في هذا الكون تعليقَ الكنانةِ في دار البطل الأرْوع ؟

قال « الدكتور محمد » : واجتمعنا في الدار التي أَنزِلُ فيها ، فراع ذلك صاحبةَ مَثْواي(١) ، فقلت لها : إنَّ هٰهنا ليلةً مصرية ستحتلُّ ليلتَكم هذه في مدينتكم هذه ، فلا تجزعوا . ثم دعوتُها الى مجلسنا لتشهدَ كيف تَستعْلِنُ الروحُ المصرية الاجتماعية برقتها وظرفها وحماستها ، وكيف تُفسِّر هذه الروحُ المصريةُ كلَّ جميلٍ من الأشياء الجميلة بشوقٍ من أشواقها الحنّانة ، وكيف تكون هذه الروحُ في جوِّ موسيقيّتها الطبيعية حين تُناجي أحبابَها ، فيجيء حديثُها بطبيعته كأنه ديباجةُ شاعرٍ في معانيها وحلاوتها ورنين ألفاظها ؟

(١) صاحبة المثوى هي ربة البيت الذي ينزل فيه الضيف ومن كان في حكمه ، يقول العربي : من كانت صاحبة مثواك ؟ فتطلق على صاحبة البنسيون

وقالت السيدة الظريفة : يالها سعادة ! سأتخذُ زينتي ، وأصلح من شأني ، وأكون بعد خمس دقائق في مصر !

قال الدكتور : وأخذْنا في شأننا ، وكان معنا طالبٌ حسن الصوت فقام الى البيانة(١) وغنّى مقطوعة « طقطوقة » مصرية من هذه المقاطيع التي تُقَطِّعُ فيها النفس ، فجعل يَمْطُلُ صوتَه بآه ، وآه ، ودار اللّحنُ دورةً تأوَّهتْ فيها الكلماتُ كلُّها . ثم اعتورَ البيانةَ طالبٌ آخر فما شذَّ عن هذه السنَّة ، وكان بعد الأول كالنائحة تُجاوب النائحة . فالت عليَّ السيدة الفرنسية وأسرّتْ إليّ : أهاتان امرأتان أم رجلان ... ؟ فقلت لها : إن هذا لحنٌ تاريخي ذو مقطوعتين كانت تتطارحه كيلوباترة وأنطونيو ، وأنطونيو وكيلوباترة . فأعجبت المرأة أشد الأعجاب ، وأكبرتْ منا هذا الذوقَ المصريّ أن نكرمها لوجودها في مجلسنا بألحان الملكة المصرية الجميلة ، وطربتْ لذلك أشدَّ الطرب ، ومَلَكها غرُور المرأة ، فجعلت تستعيد « يالوعتي ، ياشقايَ ، ياضنيَ حالي . . . » وتقول : ما كان أرقَّ كيلوباترة ! ما كان أرقّ أنطونيو ! يالَفتنةِ الحب المَلَكي !...

قال « الدكتور محمد » : ثم خجلتُ والله من هذا الكلام المخنّث ، ومن تلفيق الذي لفقته للمرأة المخدوعة ؛ فانتفضتُ انتفاضةَ من عِلوُه الغضب ، وقد حَمِيَ دمُه ، وفي يده السيفُ الباتر ، وأمامه العدوّ الوَقح ؛ وثُرتُ الى البيانة فأجريتُ عليها أصابعي ، وكأنّ في يديّ عشرة شياطين لاعشرة أصابع ، ودوّى في المكان لحنُ « اسلمي يامصر » وجَلْجَلَ كالرعد في قبة الدنيا ، تحت طِباق الغيم ، بين شرار البرق . فكأنما تَزَلْزَلَ المكان على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً ، وصَرَخَ أجدادُنا يزْأرون من أعماق التاريخ : « اسلمي يامصر » . ولما قَطَعْتُ التفتُّ إليها في كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها ، وقلتُ لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبان المصريين

ثم راجعْنا صاحبَنا الضيف ، وأحفيْناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافَعَنا طويلاً : إنه يحسن شيئاً من الموسيقى ، وإن له لحناً سيُطارحنا به لنأخذه عنه . فطربْنا بلحنه قبل أن نسمعه ،

(١) البيانة : كلمة اصطلحناها في كتابنا (السحاب الأحمر) للبيانو ، وتجمع على بيانات

وقلنا له : افعل متفضلاً مشكوراً ، وما زلنا حتى نهض متثاقلاً فجلس الى البيانة وأطرق شيئاً ، كأنه يسوّى أوتاراً فى قلبه ، ثم دقّ يتشاجى بهذا الصوت :

أضاعَ غدى من كان فى يده غدى
وحطّمنى من كان يجهد فى سبكى
فان كنتُ لا آسى لنفسى فمن إذن ؟
وإن كنتُ لا أبكى لنفسى فمن يبكى(١)

قال « الدكتور محمد » : فكان الغناء يعتلج فى قلبه اعتلاجا ، وكانت نفسه تبكى فيه بكاءها وتنقص من غصتها ، وكأن فى الصوت فكراً حزيناً يشتعلن فى همّ موسيقى ؛ وخيل الينا بين ذلك أن البيانة انقلبت امرأة مغنية تطارح هذا الرجل عواطفها وأحزانها ، فاجتمع من صوتيهما أكمل صوت انسانىّ وأجمله وأشجاه وأرقه

فأطفنا به وقلنا له : لقد كتمتنا نفسك حتى نمّ عليها ما سمعنا ، وما هذا بغناء ، ولكنه هموم ملحّنة تلحينا ، فلن ندعك أو تخبّرنا ما كان شأنك وشأنها .

فاعتلّ علينا ودافعنا جهده ، فقلنا له : هيهات ؛ والله لن نُفلِتك وقد صرتَ فى أيدينا . وإنك ما تزيد على أن تعظنا بهذه القصة ؛ فان أمسكت عنها فقد أمسكت عن موعظتنا ، وإن بخلت فما بخلت بقصتك بل بعلم من علم الحياة تفيده منك ؛ وأنت ترانا نعيش ها هنا فى اجتماع فاسد كله قصص قلبية ، بين نساء لا يلبسن إلا ما يعرّى جمالهن ، وفى رجال أفرطت عليهم الحرية ، حتى دخل فيها تخدع الزوجة . . . !

قال الدكتور : ونظرتُ فاذا الرجل كاسف قد تغيّر لونه ، وتبيّن الانكار فى وجهه ، فألممتُ بما فى نفسه ، وعلمتُ أنه قد دُهِىَ فى زوجة من هؤلاء الأوربيات اللواتى يتزوّجن على أن يكون تخدع المرأة منهن حراً أن يأخذ ويدع ، ويغيّر ويبدّل ، ويقسم كلمة «زوج» قسمين وثلاثة وأربعة وما شاء . .

وكأنما مسّت البارود بتلك الشرارة ، فانفجرت نفس الرجل عن قصة ما أفظعها !

قال : يا إخوانى المصريين ، قبل أن أنقض لكم ذلك الخبر ، أُسديكم هذه النصيحة التى لم يضعها مؤلف تاريخى لسوء الحظ ، إلا فى الفصل الأخير من رواية شقائى :

« إياكم إياكم أن تغترّوا بمعانى المرأة ، تحسبونها معانى الزوجة . وفرّقوا بين الزوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها ؛ فان فى كل زوجة امرأة ، ولكن ليس فى كل امرأة زوجة .

واعلموا أن المرأة فى أنوثتها وفنونها النسائية الفرديّة ، كهذا انسحاب اللوّن فى الشّفق حين يبدو ؛ له وقت محدود ثم يمسخ مسخاً ؛ ولكنّ الزوجة فى نسائيّتها الاجتماعية كالشمس ؛ قد يحجبها ذلك السحاب ، بيد أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقت كله .

لا تتزوجوا يا إخوانى المصريين بأجنبية ؛ إن أجنبية يتزوج بها مصرىّ هى مسدّس جرائم فيه ستّ قذائف :

الاُولى : بَوارُ امرأة مصرية وضياعها بضياع حقها فى هذا الزوج . وتلك جريمة وطنية ؛ فهذه واحدة

والثانية : إقحام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا فى هذا الاجتماع الشرقى ، وتوهينه بها وصدعه ؛ وهى جريمة أخلاقية

والثالثة : دسّ العروق الزائفة فى دمائنا ونسلنا ، وهى جريمة اجتماعية

والرابعة : التمكين للأجنبىّ فى بيت من بيوتنا ، يملكه ويحكمه ويصرّفه على ما شاء ؛ وهى جريمة سياسية

والخامسة : للمسلم منا إيثاره غير أخته المسلمة ، ثم تحكيمه الهوى فى الدين ، ما يعجبه وما لا يعجبه ، ثم إلقاؤه السمّ الدينىّ فى نبع ذرّيته المقبلة ، ثم صيرورته خزياً لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهن سبايا ، ويجعلونهن فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ؛ فأخذته هى رقيقاً لها ، وصار معها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد . . . وهذه جريمة دينية

والسادسة : بعد ذلك كله ، أن هذا المسكين يؤثر أسفله على أعلاه . . . ولا يبالى فى ذلك خمس جرائم فظيعة

وهذه السادسة جريمة إنسانية !

* * *

ما كنتُ أحسبُ يا إخوانى وقد رجعتُ بزوجتى الأوربية

(١) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة ، وكم لهذه القصة من أبطال . . !

إلى مصر — أنى أحضرتُ معى من أوربا آلةً تصنع أحزانى ومصائبى ! ولم يكن وَعَظَنى أحدٌ بما أعظكم به الآن ، ولا تنبّهتُ بذكائى الى أن الزوجة الأجنبية تثبتُ لى غربتى فى بلادى ! وتُثبتُ علىّ أنى غير وطنىّ أو غيرُ تامِّ الوطنية ، ثم تكون مني حماقةً تثبت للناس أنى أحمق فيما اخترت ؛ ثم تعودُ مُشكلةً دولية فى بيتى ، يزورها أبناءُ جنسها وَيَسْتَزِيرُونَها رغم أنفى وفمى ووجهى كلّه ! ويستطيلون بالحماية ، ويسترون بالامتيازات ، ويرفعون ستاراً عن فصل ، ويُرْخون ستاراً عن فصل . . . وأنا وحدى أشهد الرواية . . . !

إن الشيطان فى أوربا شيطانٌ عالم مخترع . فقد زَيّن لى من تلك الزوجة ثلاثَ نساء معاً : زوجةً عقلية ، وزوجةً قلبية ، وزوجةً نفسيّة ، ثم نفثَ اللعينُ فى رُوعى أن المرأة الشرقية ليس فيها إلا واحدة ، وهى مع ذلك ليست من هؤلاء الثلاث ولا واحدة . قال الخبيث : لأنها زوجة الجسم وحده ، فلا تسمو الى العقل ، ولا تتّصل بالقلب ، ولا تمتزج بالنفس ؛ وأنها بذلك جاهلة ، غليظةُ الحسّ ، خَشِنَةُ الطبع ، لا تكون مع المصرىّ إلا كما تكون الأرضُ المصرية مع فلاّحها

لعنةُ الله على ذلك الشيطان الرجيم العالِم المخترع ! ما علمت إلا من بَعدُ أن هذه الشرقيةَ الجاهلةَ الخشنةَ الجافيةَ هى كالنجم الذى تِبْرُهُ فى ترابه ، وماسه فى فَحْمِه ، وجوهرُه فى معدنه ؛ وأن صعوبتها من صعوبة العفّة الممتنعة ، وأن خشونتها من خشونة الحب المتزّن بنفسه ؛ وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامى على المادة ؛ وأنها بمجموع ذلك كان لها الصبرُ الذى لا يدخُله العجز ، وكان لها الوفاءُ الذى لا تَلحقُه الشبهة ، وكان لها الايثارُ الذى لا يُفسده الطمع . هى جاهلةٌ ، ولها عقلُ الحياة فى دارها ؛ وغليظةُ الحس ؛ ولها أرَقُّ ما فى الزوجة لزوجها وحده ؛ وخَشِنَةُ الطبع ، لأنها تتنزّه أن تكون مَلْمَساً ناعماً لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك ... لا كامرأة الحب الأوربّية ، التى تجعل نفسها أنثى الفن ، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرقىّ من التفضيل والايثار والاجلال والاباحة — فى كلمة « أنا » قبل كلمة « أنت » . . امرأةٌ أنشأتها الحربُ العظمى بأخلاقٍ مُخَرِّبة مُدَمِّرة تنفجر بين الوقت والوقت

عندنا يا إخوانى تعدُّدُ الزوجات ، يتّهموننا به من عمىً وجهل وسخافة . أنظروا ، هل هو إلا إعلانٌ لشرعيّة الرجولة والأنوثة ، ودينيّة الحياة الزوجية فى أىّ أشكالها ؛ وهل هو إلا إعلان بطولة الرجل الشرقىّ الأُنوف الغيور أن الزوجة تتعدّد عند الرجل ولكن . . . ولكن ليس كما يقع فى أوربا من أنّ الزوج يتعدّد عند المرأة . . . !

يتهموننا بتعدّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقُها وواجباتُها ، بقوة الشرع والقانون ، نافذةً مُؤَدّاة ، ثم لا يتّهمون أنفسهم بتعدّد المرأة خليلةً خادنةً ليس لها حقّ على أحد ، ولا واجب من أحد ، بل هى تتقاذفُها الحياةُ من رجل الى رجل ، كالسكّير يتقاذفه الشارع من جدار الى جدار

لعنةُ الله على شيطان المدنية العالم المخترع المخنّث ، الذى يجعل للمرأة الأوربيّة بعد أن يتزوّجها الرجل الشرقى أصابع « أوتوماتيكية » ، ما أسرعَ ما تمتد فى نَزْوة من حماقاتها الى رُجلها بالمسدّس ، فاذا الرصاصُ والقتل ؛ وما أسرع ما تمتد فى نزوة من عواطفها الى عاشقها بمفتاح الدار ، فاذا الخيانة والعُهر !

ماذا تتوقّمون يا إخوانى من تلك الرقيقة الناعمة ، المتأنّثة بكل ما فيها أنوثةً تكفى رجالاً لا رجلا واحداً ، وقد ضَعُفَت روحيّة الأسرة فى رأيها ، وابتُذلت الزوجيّة فى مجتمعها ابتذالا ، فأصبح عندها الزواجُ للزواج على إطلاقه ، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد مقصورة عليه ؛ وبذلك عاد الزواج حقّاً فى جسم المرأة دون قلبها وروحها ؛ فان كان الزوجُ مشئوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رَجُلَ قلبها — فعليه أن يَدَعَ لها الحرية لتختار زوجَ قلبها . . . ! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعىّ بمنزلة المرأة مع فاسق ؛ ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعىّ . . . ! وإن كان الرجل منحوساً مُخَيّباً ، وكان قد بَلَغَ الى قلبها زمناً ثم ملّه قلبُها — فعليه أن يَدعَ لها الحرية لتتنقّل وتَلَذّ بلذات الهوى ، ويقولَ لها : شأنَكِ عن أحببتِ ، فان هذا النحوس المخيّب ليس عندها إنساناً ، ولكنه رواية انسانية انتهى الفصل الجميل منها بمناظره الجميلة ، وبدأ فصلٌ آخر بحوادثَ غيرِ تلك . فليَسَن يشهد الرواية أن يتبرّم ما شاء ، وينتقل كما يشاء ، ومتى شاء انصرف من الباب . . . !

امرأةُ هذه المدنيّة هي امرأةُ العاطفة ؛ تتعلق باللفظ حين تُلبِسُه العاطفةُ من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معاني العقل ، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة

تقوى العاطفة فتجيء بها الى رجل ، ثم تقوى الثانية فتذهبُ بها مع رجل آخر . . . ! وتُقيِّد نفسها إن شاءت ، وتُسَرِّح نفسها إن شاءت ؛ وما بُدٌّ من أن تَبلوَ الحياةَ كما يبلوها الرجل ، وأن تخوض في مشاكلها ؛ وإذا شاءت جعلت نفسها إحدى مشاكلها . . ! ولا مندوحة من أن تتولىّ شأن نفسها بنفسها ، فاذا خاست أو غدرت فكلُّ ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكلُّ ذلك رأيٌ وحقٌّ ، إذ كان محورُها الذي تدور عليه هو عاطفتَها وحريةَ هذه العاطفة ؛ فمَن هذا يقرِّر لها خطتها ، ويملي عليها واجباتها ، ويُزَوِّر لها الأسماءَ على ارادته دون إرادتها ، فيسمى لها نكدَ قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمانَ عاطفتها باسم واجب الزوجة الشريفة ؟

ومنذا خوَّله الحق أن يقرّر وأن يُملي ؟

وهذا الشرقُ العتيقُ المأفونُ الذي قبلَها سافرة لا تعرف روحُها ولا جسمُها الحجاب ؛ ما بالُه يُريد أن يضربَ الحجاب على عاطفتها ، ويتركها محبوسةً في شرفه وحقوقه وواجباته ، وإن لم تكن محجوبة في الدار ؟

ما علمتُ يا إخواني إلا من بَعد ، أن الزوجة الغربية قد تكون مع زوجها الشرقي كالسائحة مع دليلها . هيهات هيهات ، إنه لن يُمسكَها عليه ، ولن يُكرهها على الوفاء له ، إلا أن تكون حُثالةً يزهد فيها حتى ذُبّاب الناس ؛ فيأسها هو يجعل هذا المسكين مطمعها ، وهي مع ذلك لو خلطته بنفسها لبقيتْ منها ناحية لا تختلط ، إذ ترى أمته دون أمتها ، وجنسه دون جنسها ؛ فما تَسُبُّ أمةَ زوجها وبلادَه بأقبح من هذا !

أما والله إن الرجل الشرقي حين يأتي بالأجنبية لتلوين حياته بألوان الأنثى ... لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائب حياته ! وقد يكون هنالك ما يشذّ ، ولكن هذه هي القاعدة

***

أما قصتي يا إخواني ... ...

قال الدكتور محمد : قد حكيتَها « يرحمك الله »

طنطا

٢ ـ محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري

لست أغلو إذا زعمت أنني في مطلع نشأتي الأدبية كان « مصباح الشرق » عندي هو المثل الأعلى للبيان العربي . وبهذا كنت شديد الإكباب على قراءته ، وتقليب الذهن واللسان في روائع صيغه وطرائف عباراته . حتى لقد كنت أشعر أنني أترشّفها ترشّفاً لتدور في أعراقي وتخالط دمي ، وتطبع ملكتي على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف . ولكن (ما كل ما يتمنّى المرء يدركه) !

ولقد كنت فتًى مولعاً بالصناعة ، شأن أكثر نابتة المتأدبين في ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحي في المصباح (أحاديث عيسى بن هشام) زادني وزاد لِداتي به فتونا

كيف تمثل لي محمد المويلحي ؟ :

لم تكن عيني الى هذا العهد قد وقعت قط على محمد المويلحي ، ولا خيارَ للمرء في تمثّل صورة من لم يرَ من الأناسيّ ، وما لم يشهد من البقاع . فكانت الصورة التي جلاها عليّ الخيال لهذا الرجل ، صورة شابٍّ معتدل القدّ ، وضيء الطلعة ، وسيم الوجه قسيمه . وما كان ذلك البيان الجوهري ليجلو عليّ من الرجل غيرَ ذلك . على أنني كنت أرى أباه ابراهيم بك الحينَ بعد الحين في زياراته لوالدنا ، عليهما رحمة الله ، وفي زيارات والدنا له (بعمارة البابلي) يوم كنت أصحبه . وكان هذا المويلحي تحفة من تحف العصر التي قلّ أن يجود بمثلها الزمان : قوة لسَن ، واشتمال ذهن ، وحضور بديهة ، وسطوة نكتة ، وسعة علم بالزمان وأحوال الناس . أما سرعته وتوفيقه في إيراد الشاهد من عبر التاريخ ، ومأثور الآداب من منثور الكلام ومنظومه ، فهذا ما لم يتعلّق بغباره فيه أحد . فكان مجلسه متاعاً من أعظم المتاع

على أنني لم أوفّق الى رؤية المويلحي الابن مرة واحدة !

وتتابعت السنون ، وخلص تحرير « المصباح » الى محمد . ثم امتحنه القدر بحادثة اعتداء يسير عليه من بعض الطيّش من أبناء (الذوات) في إحدى القهوات . وانتهى الخبر الى المرحوم